التفكير النقدي عند ابن أبي الإصبع المصري بين الإبداع والإتباع
كتاب "تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن"-أنموذجا

Critical issues in the book “Editing Ink in the Making of Poetry and Prose and Explaining the Miracle of the Qur’an” by Abu Al-Asaba Al-Masry

1 خنوفة نعيمة*

جامعة محمد خيضر بسكرة، (الجزائر)، **naima.khennoufa@univ-biskra.dz**

مخبر وحدة التكوين والبحث في نظريات القراءة ومناهجها

2 بوضياف غنية

جامعة محمد خيضر بسكرة، (الجزائر)، **Ghania.boudiaf@univ-biskra.dz.**

مخبر وحدة التكوين والبحث في نظريات القراءة ومناهجها

تاريخ الارسال06-11-2024 .تاريخ القبول 29-12-2024 تاريخ النشر17-12-2025.

ملخص:

نسعى من خلال هذا المقال العلمي التطرق إلى أبرز القضايا النقدية التي تناولها ابن أبي الإصبع المصري من خلال كتابه **" تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن"**، وذلك انطلاقا من البحث في أهم القضايا المطروحة في زمن الناقد، منطلقين بداية بالحديث عن لمحة تاريخية عن سيرة الناقد، مرورا إلى أهم ما جاء في كتابه من قضايا نقدية بارزة بداية بقضية اللفظ والمعنى بالإضافة إلى قضية الموازنة، وانتهاءً بقضية الصدق والكذب، لنجد الناقد ابن أبي الأصبع المصري قد غاص في أعماق تلك المتاهات والأفكار النقدية التي طرحها من كان قبله، ليقدم لنا رؤية نقدية تعبر عن كيانه النقدي بخصوص تلك القضايا النقدية في ذلك الوقت.

تأسيسا على ما سبق؛ فإن إشكالية هذه الورقة البحثية تدور حول:

-ما هي أهم القضايا النقدية التي عالجها ابن أبي الإصبع المصري في كتابه**"تحرير التحبير"**؟.

الكلمات المفتاحية: ابن أبي الإصبع المصري، النقد الأدبي، الموازنة، اللّفظ والمعنى، الصدق والكذب.

Abstract:

This scientific book is famous for shedding light on the details that he reached until the end, “The Liberation of Ink in the Making of Poetry and Prose and the Explanation of the Miracle of the Qur’an” by its author, Ibn Abi Al-Asba’ Al-Masry. This is part of the talk about the critic’s investigation of the most prominent ancient emphasis, most important of which is the idea of the concept of poetry and prose, in addition to Issues of Quranic miracles and rhetoric, and issues that fall within ancient rhetorical criticism.

Keywords: Abu Al-Asaba Al-Masry, issue, literary criticism, balance, pronunciation and meaning, truth and lies.

* خنوفي نعيمة

1. مقدمة:

شهد النقد العربي تطوراً ملحوظاً في العصور القديمة، لاسيما خلال القرنين السابع والثامن الهجريين، حيث أُلفت فيع العديد من المؤلفات التي تناولت قضايا متنوعة تشمل النحو والبلاغة والنقد، وقد تميزت نصوص كل كاتب بخصائص فريدة تنبع من تناوله للقضايا السائدة في عصره، معبرة عن مدى إدراكه للأدب وتذوقه له، كما كانت تعكس الثقافة المحيطة به آنذاك .

بناءً على ذلك؛ اختار هذا البحث أن يتمحور حول دراسة القضايا النقدية الواردة في كتاب "**تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن**" لصاحبه ابن أبي الإصبع المصري، والذي أثار فيه جوانب نحوية وبلاغية ونقدية وغيرها. ليسعى هذا المقال إلى التركيز على القضايا النقدية الموجودة داخل هذه الكتاب.

تأسيسا على ذلك؛ فإن إشكالية هذه الورقة البحثية تركز على:

-ما هي أهم القضايا النقدية التي عالجها ابن أبي الإصبع المصري في كتابه**"تحرير التحبير"**؟.

وعليه؛ للإجابة على الإشكالية الرئيسة لهذا العمل البحثي قمنا بتقسيمه إلى ثلاث نقاط أساسية تدور في فلك القضايا النقدية الموجودة داخل الكتاب.

2-قضية اللّفظ والمعنى عند ابن أبي الإصبع المصري:

تأثر ابن أبي الإصبع برأي النقاد الذين سبقوه في هذه القضية، حيث وجد تشابهًا بين اللفظ والجسد وبين المعنى والروح، وأصبح يؤكد على ضرورة التناغم بينهما في البيان، ويعتبر الألفاظ هي بمثابة الأجساد، بينما تعتبر المعاني كالأرواح التي تعطيها الحياة .فإذا كانت الألفاظ قوية ومتينة، وجب أن تكون المعاني كذلك في قوتها لتوازيها. وبالمثل، إذا كانت الألفاظ ضعيفة ومهزوزة، فمن المستحسن أن تكون المعاني متكافئة في ضعفها. الهدف هو تحقيق التوازن بين عناصر الكلام المختلفة وتوفير تناسق يتيح للفهم أن يكون متجانساً ومتكاملاً[1].

وعليه؛ إذن يرى ابن الإصبع أن الألفاظ عبارة عن أجساد وأرواحها المعاني وفي هذا الكلام نلمس إتباعه لمن سبقه من أمثال ابن رشيق الذي رأى قبله هذا الرأي في كون الألفاظ عبارة عن أجساد وبها أرواحها وهي المعاني.

لنجده في العديد من المواقف يقوم بتحريض المبدع على تخير الألفاظ الرقيقة والمعاني الرشيقة لتعمل على إطهار براعة المؤلف بوضوح في صياغة النصوص وتنسيق الكلمات بشكل متقن. [2]، ثم يقوم بتقديم بعض الأبيات التي تعبر عن ما يريده من خلال استرشاده النقدي، يقول:

انتخب للقريض لفظاً رقيقاً* كنسيم الرياض في الأسحار**

فإذا اللفظ رق شق عن المع* ني، فأبداه مثل ضوء النهار**

مثل ما شفت الزجاجة جسماً* فاختفى لونها بلون العقار**

ثم يعود للاستشهاد ببيت أبي تمام يحمل له نفس المعنى الأول، ، بالإضافة إلى ذكر بيت آخر للبحتري يحمل معنى آخر مشترك. [3]. ليكون كل هذا فيه إشارة واضحة إلى اهتمامه الكبير بجوانب اللفظ والمعنى في الشعر والنثر.

لنجده من ناحية أخرى يطغى عليه تأثر بالغ بنظرية عبد القاهر الجرجاني في النظم، نرى فيها اهتمامه بتنظيم الكلام وترتيبه مع تركيزه على كيفية تقديم هذا الكلام، وذلك من خلال ظاهرتي التقديم والتأخير، وغيرها من الجوانب التي تخص نظرية النظم ؛ قائلا بأن حسن التنظيم في صياغة الكلام البليغ يعد من الضروريات، ومن بين أسس هذا التنظيم في الجمل الفعلية هو البدء بالفعل، يليه الفاعل، ثم يأتي المفعول به .وعندما يحتوي الكلام على مفعولين، بحيث يحتاج أحدهما إلى وساطة للوصول إليه بينما يصل الآخر بالفعل مباشرة، ينبغي تقديم المفعول الذي يصل إليه الفعل مباشرة.[4]،وعليه؛ ففي هذا الكلام إشارة منه إلى كون حسن الترتيب أمر في غاية الأهمية، وقد ناقشه من منطلق التعدي و تأخير وصول الفعل.

إذن؛ فإن منظوره لم يكن مائلا لصالح اللفظ أو المعنى، بل كان يروج لعمل توازن بينهما، مؤكداً على أهمية احترام كل عنصر ورفض التّقليل من قيمته.؛ وهذا ما لمسناه في قوله بلزوم تجنب الكلام المعتمد بشكل كامل على السجع، حتى لا يبدو متكلفاً ويظهر فيه أثر الجهد المبذول .قد يؤدي التركيز على السجع إلى استخدام معانٍ غير مناسبة وألفاظ غير ملائمة. بل ركز كل اهتمامك على تحسين الألفاظ والتأكد من صحة المعاني.[5]، وبهذا يكون ابن أبي الإصبع يرى في تخير الألفاظ وانتقائها وصحة المعاني فيها أمرا جد مهم عكس التكلف في التركيز على سجع الكلمات ورصفها. وبهذا يكون قد عطف على كلام قدامة بن جعفر الذي يرى بضرورة مدح الشاعر في شعره بالصفات النفسية.

والجدير بالذكر في نفس السياق؛ اهتمام ابن أبي الإصبع على التركيز الكبير بالجوانب اللفظية والمعنوية ومحاولة موازنتها مع أساليب التعبير الأخرى، زيادة على ذلك يقوم بإبراز تفوق ألفاظ القرآن الكريم ومعانيه على غيره من النصوص الأخرى، مستعرضا بعضاً منها في بحثه حول الموازنات الأدبية، كما قام بابتكار بعض الأساليب البديعية التي تركز على اللفظ والمعنى بوجه التحديد، مثل "**الفرائد** "و"**التصرف** "و"**النزاهة**"، وهذا ما نلمس تفوقه فيه على غيره من النقاد ممن سبقوه أو عاصروه.

ومن هذا المنطلق؛ فقد ميز ابن أبي الإصبع داخل كتابه **"تحرير التحبير"** بين ثلاثة أنواع من المعاني هي: معاني البديع، ومعاني الفنون، ومعاني النفس. ليعرف معاني البديع بأنها هي الاستعارة والجناس والطباق ونحوها[6].

أما بالنسبة لمعاني الفنون فهي ما ينتجه المتكلم من الأغراض والمقاصد؛ مثل المديح والهجاء، والرثاء، والفخر، والوصف وغيرها.

أما بالنسبة للنوع الثالث من المعاني وهي معاني النفس، فإنه لم يعرفها ويبين الغاية منها، ولكن يمكننا استنتاج تعريف لها من خلال ما جاء به في كتابه، واستعمالاته لها، إذ يقول على سبيل المثال بأن التكميل الحقيقي يتحقق

فقط عندما نجمع بين تحسين معاني النفوس وتحقيق أهدافها.[7]، ومن هذا نستدل بأن معاني النفوس تشكل جزءًا معينا من أغراض المتكلم، وهي عبارة عن معانٍ فنية. مثالا ذلك: يمكن لمعاني النفس أن تكون مشتقة من أغراض المديح: وهي صفات نفسية كالشجاعة والكرم والمروءة والجرأة ومواجهة الأعداء، وغيرها من صفات الثناء. وبالتالي؛ فإن هذه الصفات النفسية تتناغم مع الغرض الذي يشمله المديح، وبإمكاننا قياسها بهذا الشكل.

ويتمثل سبب التمييز بين هذه الأنواع الثلاثة للمعاني في وجود فنون بديعية متخصصة تعنى بأحد أو اثنين من هذه المعاني، دون النوع الثالث، كما توجد فنون أخرى تشمل الأنواع الثلاثة .وبناءً على ذلك، يعتمد على هذه المعاني جميعا كأساس للتمييز بين بعض الأبواب البديعية التي قد تتشابه فيما بينها وتلتبس على بعض الأفراد .على سبيل المثال، يُذكر الاختلافات بين التتميم والتكميل وأمثلة منها. ولعل التتميم –عنده–ينحصر في المعاني المتعلقة بالنفس، وليس في الزخرف البلاغي أو المحسنات البديعية. وفيما يخص الفنون، فهي تشير إلى أهداف المتحدث ومقاصده المتعددة، والتكميل يتناول الجانبين معًا، سواء في المعاني أو الفنون[8] .

إضافة إلى ما ذكر؛ نرى ابن أبي الإصبع يحدد لائتلاف المعاني شروطا واضحة مع الألفاظ ؛ يقول في ذلك أن من أجل التعبير عن الفخامة في المعنى، يجب أن تكون الكلمات قوية ومؤثرة؛ أما إذا كان المعنى يتسم بالرشاقة، فتحتاج إلى استخدام كلمات سلسة وخفيفة. وعندما يتطلب المعنى فكراً غريباً وخارجاً عن المألوف، ينبغي اختيار ألفاظ فريدة وغير شائعة. وفي حال كان الموضوع جديداً ومعاصراً، فمن الأفضل اللجوء إلى ألفاظ حديثة ومتداولة[9]، فالائتلاف هنا كان من جهة الغرابة، إذ لما كان المعنى غريباً، أتى اللفظ غريباً كي يحصل الائتلاف بينهما.

3-الموازنة عند ابن أبي الإصبع:

تعتبر الموازنة في الأدب من بين النقاط الحرجة التي ناقشها ابن أبي الإصبع في كتابه "**تحرير التحبير**"، إذ عند قراءة هذه الكتب، يظهر للقارئ أن المقاربة النقدية للكاتب تتمحور أساساً حول مفهوم الموازنة بين مختلف الأنواع الأدبية .يبدو أنه مولع بمفهوم الموازنة، ويُكلَّف بدراسته بعمق، مما يجعل موازناته غنية ومتعددة الجوانب، سواءٌ عندما يقوم بالموازنة بين الشعر والقرآن، أو بين الشعر والحديث النبوي، وغير ذلك من المقاربات، ليسلك ابن أبي الإصبع في دراسة الموازنات طريقًا مشابهًا لطريقة النقاد القدامى في تحليل بعض الموازنات وعدم تحليل أخرى، لكن منهجه الشامل يعتمد على تفسير وشرح واستقصاء الظواهر بدقة، مما يجعل استنتاجاته غالبًا دقيقة وصحيحة.

ينبغي الإشارة إلى نقطة بحثية مهمة في دراسة قضية الموازنات التي تتعلق بالمفاضلة بين المعاني لدى ابن أبي الإصبع، وذلك نظرًا لتأثره برؤية نقدية متأثرة بفكر الدين بن الأثير، والتي تختلف عن وجهات النظر التي اعتاد عليها النقاد سابقًا، مما قد ينعكس على مضمون موازناته بشكل عام.

كان النقاد في الماضي يُولون اهتماماً بالغاً لمقتضيات الدقة والدراسات المتعمقة في تحليلاتهم الأدبية، حيث كانوا ينظرون بعناية فائقة إلى مختلف المعاني المتداولة، مقارنين ومميزين بينها، مُسلطين الضوء على الاختلافات

والتوافقات بينها، بالإضافة إلى تسليط الضوء على التغيرات التي طرأت على تلك المعاني بمرور الوقت .زيادة على ذلك، كانوا ينصبون اهتمامهم على جوانب عديدة في تحليلاتهم، حيث يُمكن أن يُشار إلى الآمدي كواحد من النقاد الذي أوضح في إطار تحليله لأعمال أبي تمام والبحتري، وكيفية موازنته بين قصائدهما، سواءً فيما يتعلق بالأوزان الشعرية والقافية وتحليلها الصرفي، أو في تقدير المعاني المختلفة. لي ستحسن النقاد تلك الجوانب في شعرهما وأظهروا الاختلافات بينها بوضوح متناهي. [10]

على نقيض الآخرين اعتمد ابن أبي الإصبع على منهجٍ آخر في موازنته، حيث وازن بين المعاني المتفقة والمعاني المختلفة، تحت تأثير ضياء الدين بن الأثير كما ورد سابقاً .يقول في تعريف "التنظير :"أنه أمر يتعلق بمقارنة دقيقة بين عبارتين؛ لتحديد ما إذا كانتا تتشابهان في معناهما أو تختلفان، بهدف اكتشاف الأفضل بينهما. [11].

كما يرى ابن أبي الإصبع أنه من الممكن التفضيل بين المعاني المتضادة بسبب عوامل عدة، حيث أشار إلى أن تفضيل أحد المعاني المتضادة على الآخر يتوقف على دراسة معاني الكلمات وتراكيبها، وذلك لمعرفة مدى تنوع العيوب والمزايا في كل معنى، ومقارنتها ببعضها البعض .فإذا كانت المزايا أكثر والعيوب أقل في معنى ما، فإن ذلك يجعله أفضل من الآخر. هذا ما أشار إليه ضياء الدين بن الأثير. [12]

عندما يشير ابن أبي الإصبع إلى تضاد المعاني، لا يكون ذلك بالضرورة بين كرم وبخل أو شجاعة وجبن فقط، بل يقصد به اختلاف المعاني وتوجه كل معنى في اتجاه مختلف عن الآخر، ليس بالضرورة أن يكون ذلك ضده .هذا ما يظهر من الأمثلة التي ذكرها بعد ذكره السابق بين قوله تعالى: ﴿**وقيل يا أرض ابلعي ماءك** ﴾ [13]الآية، وقوله جل جلاله: ﴿ **إن الله يأمر بالعدل والإحسان**﴾ [14]الآية بقوله: فإن الآية الأولى في الطبقة العليا من البلاغة والفصاحة، والثانية في الطبقة الوسطى بالنسبة إليها، لأن الثانية، وإن كانت بليغة فالأولى أبلغ؛ وإن كانت كثيرة المعاني، فالأولى أكثر، فالأولى أفضل مع كون مقصد الاثنين مغايراً مختلفاً [15].

يظهر جليا أن الآيتين لا تحملان معنيين متناقضين بل إن أحدهما مختلف عن الآخر فقط وفي كلتا الآيتين، يوجد أمر من الله سبحانه وتعالى .في الأولى، هناك أمر بأن يصل الماء إلى الأرض، بينما في الثانية، هناك أمر بإتباع مجموعة من الفضائل، إذ من كلام ابن أبي الإصبع –السابق–يظهر أنه قد حصر مقارنته بين الآيات على الألفاظ والتراكيب فقط، دون التطرق للمعاني.

وعليه؛ يجب أن تقتصر المقارنة بين المعاني المختلفة على ذلك دون تجاوزها إلى النظر في المضمون، لأن تفضيل المعاني يعتمد على ذوق الناقد وميوله. وبالتالي؛ تفضيل الناقد لبيت يحمل معنى يروق له لا يعني بالضرورة صحة حكمه .الحكم الذي يعتمد في مثل هذه المقارنة يرتكز على التحليل الفني للبيتين والنظر في عناصر الشعر مثل الألفاظ والتراكيب والوزن والقافية، ثم يتم التفكير في المعاني من حيث الكثرة والقلة وفقط، حيث يُفضل البيت ذو المعنى الأكثر إثراءً.

إذا عدنا إلى ضياء الدين بن الأثير، نجد رؤيته للمسألة تختلف قليلاً عما أشار إليه ابن أبي الإصبع ونسب إليه .يعتبر أن المفاضلة بين المعاني المختلفة موضوع دقيق ومبهم؛ حيث يقع النظر فيه من خلال اللفظ والمعنى، على عكس المعاني المتفق عليها حيث يقع النظر فيها فقط من خلال اللفظ. [16]، وضرب على ذلك مثلاً بيت امرئ القيس الذي يقول فيه [17].

كأن قلوب الطير رطباً ويابساً*لدى وكرها العناب والحشف البالي**

وبيت النابغة [18].

ولست بمستبق أخاً لك لا تلمه*على شعث، أي الرجال المهذب**

عند مقارنة البيتين من حيث اللفظ، نجد تشابهاً بينهما، لكن عندما نأتي إلى المعنى، يبرز بيت النابغة كالأفضل .يعود السبب إلى أنه ينطوي على حكمة تبرز من خلال تجربة قوية مع الإخوان، موجهة لتعليم الجاهل وتنبيه الفطن .إن الحكمة التي يحتويها بيت النابغة تُعد أكثر أهمية وفائدة للناس من التشبيه الموجود في بيت امرئ القيس .إذ أنّ بيت النابغة يتضمن حكمة عميقة يمكن للمرء أن يستخلصها بالتفكر الواعي..[19].

وعليه؛ فابن الأثير يفضل بيت النابغة؛ لأنّه يضمُّ في طيّاتِهِ حِكمةً تعودُ بالنفع على الناس في حياتِهِم، عوضًا عن بيت امرئ القيس الذي يحمل في ثناياه صورةً تُقامُ على مقارنة شيئين ببعضهما البعض، وهذا التوازن يعتمد بشكلٍ أكبر على التأثيرات الشخصية بدلاً من الجوانب العلمية والموضوعية .

سأقوم بتقديم مثال واحد لكل نوع من أنواع الموازنات الأدبية التي ألفها ابن أبي الإصبع .سأقوم بتحليل كل نموذج وشرحه بتفصيل، لتوضيح أسلوبه ونهجه في التأليف الأدبي .سأختار النماذج بحيث تكون شاملة وتحتوي على معظم العناصر الأساسية التي يعتمد عليها في هذه الموازنات، بهدف الوصول إلى فهم شامل يعكس نهجه في الموازنة الأدبية .يهدف هذا العمل إلى تقديم تصور كامل عن طريقته في كتابة الموازنات الأدبية، دون الدخول في تفاصيل جميع أعماله نظراً لصعوبة ذلك ولتحقيق أهداف الدراسة بشكل فعال.

ومما يحسن الإشارة إليه في هذا المجال أن للموازنة عند ابن أبي الإصبع معنيين: أولهما قصد به النوع البديعي، وعرفه بقوله: هو أن تأتي الجملة من الكلام، أو البيت من الشعر، متزن الكلمات، متعادل اللفظات في التسجيع والتجزئة معاً في الغالب[20].

وضرب أمثلة عليه منها قول امرئ القيس:

أفاد، وساد، وقاد، وزاد* وشاد، وجاد، وزاد، وأفضل** [21]

وثانيًا، يتعلق المعنى الاصطلاحي والنقدي لكلمة "الموازنة"، والذي يُعرّف على أنه مقارنة بين المعاني لتحديد ما هو أرجح في النظم من غيره. [22].

وذكر مثالاً عليه قول السموأل:

وننكر إن شئنا على الناس قولهم*ولا ينكرون القول حين نقول**

ثم قال: فإنك إذا وازنته بقول الله سبحانه: ﴿لا يسأل عما يفعل وهم يسألون﴾[23]، تبين لك ما بين الكلامين من الفرق [24]، في النهاية توصل إلى أن هذه إحدى وجوه الإعجاز التي يتميز بها القرآن، حيث يمكن اعتباره مقياسًا لكل كلام معجز. [25]، في سياقنا هنا، يعد التوازن موضوع دراستنا الأساسي، وهو الهدف الذي نسعى لتحقيقه من خلال هذا الدرس .ليس كمجرد جانب جمالي يُلاحظ في النثر والشعر، بل نتجاوز ذلك لنستكشف فن تحقيق التوازن بين النصوص المتنوعة .نركز على تقديم جودة عالية أكثر من التركيز على الكثرة..

4- ابن أبي الإصبع وقضية الصدق والكذب:

في كتاباته، أولى ابن أبي الإصبع اهتماماً خاصاً لقضية الصدق والكذب في الشعر، مستعرضاً بمهارة مواقف أنصار كل من مؤيدي مذهب الكذب ومذهب الصدق .قام بتقديم حجج كل جانب بأناة وحنكة مميزة، حيث تمكن من مناقشة كل طرف على حدة .وبأسلوب تحليلي متعمق، أوضح رأيه بشكل مفصل، مما أضاف بعدًا فلسفيًا عميقاً لهذه المعضلة الأدبية الأزلية ..قام قدامة بتسليط الضوء على تعريف المبالغة وأشار إلى تنوع الآراء حولها .هناك نقاد يرون أن أفضل الشعر هو ذلك الذي يحتوي على لمسة من الكذب، في حين يعتقد آخرون أن أروع الكلام هو ما يكون صادقًا وخاليًا من المبالغة .كما تمت مناقشة الخلاف الذي نشب بين النابغة الذبياني وحسان، حيث قام النابغة بتسليط الضوء على بعض النقاط في قصيدته التي قد تكون محط جدل.. [26]

لنا الجفنات الغر يلمعن بالضحى وأسيافنا يقطرن من نجدة دما

إن وجود نقاد يعتبرون المبالغة عيباً في الكلام، دون أن يلاحظوا جمالياته إلا إذا كانت مصحوبة بالصدق والحقيقة .يعتقدون أن المبالغة تدل على ضعف المتحدث وعجزه عن إيجاد معانٍ جديدة أو تزيين كلامه بأسلوب مبتكر، أو استخدام كلمات مزينة بصفات جميلة.

يتقن ترتيب الأفكار بشكل جيد، وإذا فشل في ذلك كان يستخدم المبالغة لسد الفجوة وتعويض النقص، مما قد يبدو مبالغًا فيه أمام الآخرين. [27]

وقد رد هذين المذهبين بقوله: "عندي أن المذهبين مردودان[28]. لديه حججه الخاصة بهذا الشأن، إذ رأى أن الكلام الفائض هو الأفضل، بمعنى أنه يجب أن يكون الكلام غزيراً وشاملاً ليعبر عن الحقيقة بشكل كامل .كما يعتبر أن معظم الكلام والشعر يتجاوز الحدود المفروضة من قبل الحقيقة، ومع ذلك يظل في غاية الجودة ويمثل نهاية الجمال وتمام الفائدة.

بالنسبة للنقطة الثانية :تُعَدّ المبالغة جزءًا لا يتجزأ من الفنون المتنوعة التي تمتاز بقدرتها على التحرر من القيود الشكلية الصارمة. ولهذا، لا يصح اعتبار عنصر واحد من الفن أكثر تفضيلًا بشكل مطلق على العناصر الأخرى، نظرًا لتعدد وجوهها .أما عن النقطة الثالثة :فإن الالتزام بالصدق يشكل ركيزة أساسية لنهج معظم الشعراء الذين يُفضِّلونه دومًا على الكذب في قصائدهم، حتى وإن كانت أشعارهم تتمتع بعمق في التركيب وتناغم جمالي

فائق .يُبرز ذلك في إبداعات شعراء مثل حسان بن ثابت وغيرهم. وأُشير إلى بعض الأمثلة الأدبية من نصوص لشعراء مثل زهير بن أبي سلمى، وهو ما يعكس بوضوح مواقفهم تجاه هذا الموضوع.[29].

الشعر يعكس جوهر الإنسان ويعرضه في المجالس، سواء كان حكيمًا أو أحمقًا .فالبيت الشعري الأصدق هو ذلك الذي يُقر المستمع بصدقه عند سماعه .من المهم هنا ملاحظة أن الشعراء الذين يفضلون المديح الصادق لا ينكرون جمال الغزل، ورغم احتواء بعض قصائدهم على مبالغة، فإن الصدق يسيطر على إبداعاتهم ويكثر فيها .في المقابل، أولئك الذين يميلون إلى الكذب ويقدمونه على الصدق، يقل لديهم الالتزام بالحقائق ويفضلون المبالغات والتهويل، كما يظهر في شكوى النابغة إلى النعمان في شعره، حيث تغلب المبالغة على صدق الكلام.

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة*وليس وراء الله للمرء مذهب** [30].

وأما من أيد المبالغة في الكلام، ورأى أنه لا يحسن دون المبالغة فرأى أن كلامه محال بين الإحالة، إن لم يحمل على التقييد، وتقييد المبالغة يكون باقترانه بما يخرجها من باب الاستحالة ويدخلها في باب الإمكان كما سيأتي.

رأى ابن أبي الإصبع أن تفضيل المبالغة على الحقيقة قد يكون نتيجة لتمييزه بين استخدام الكلمات بخفة واستعمالها بتوسط، وتركيبها بشكل جيد دون عيوب، ومطابقتها في الجودة والمعنى والتمام، ورشاقة الأسلوب من دون تكلف .وإذا كان شخص قد مال إلى المبالغة في أحد الأمور ولم يفعل في الأخرى، فإنه يجب تفضيل المبالغة المرضية. [31]

إذا تناول أحد الحديثين اللذين يتساويان من كلا الجانبين، بتضخيمٍ مقبول يعني تفضيله على الحديث الآخر

ولم ينتبه أحد من النقاد قبل ابن أبي الإصبع إلى هذا الأمر بقدر ما قرأت، ولا تلك الشخصيات التي اعتمدت على تفضيل مبدأ التضخيم على مبدأ الصدق.، فقدامة مثلاً يرى – كما سلف – أنه إذا كان الشخص يستخدم المبالغة بشكل يتجاوز الواقع ويدخل في مجال الخيال أو الأمور غير الموجودة، فإن الهدف من ذلك غالبًا هو تقديم مثلاً أو للوصول إلى أقصى حد في الوصف. [32]

هذا يعني أن ما قدمه ابن أبي الإصبع في تفسيره لسبب تفضيل استخدام المبالغة لم يكن الهدف الحقيقي لأتباع هذا النهج .بل كان هدفهم التعبير عن المعاني بأقصى درجاتها، وصولًا لتعبيرات قوية وفعالة تعكس حالة المعاني المثلى التي يتطلعون إليها .يتضمن ذلك تقديم الأفكار بشكل يرضي رغباتهم وتطلعاتهم، مع إبراز الجوانب التي يرونها أكثر جاذبيةً وتأثيرًا.

وذكر ابن أبي الإصبع كذلك نقطة لصالح أنصار مذهب المبالغة في الكلام، مشيرًا إلى وجود الكثير من الأمثلة على المبالغة في القرآن الكريم، مدعمًا ذلك بالشواهد الكثيرة.[33]، ويدحض هذا الادعاء مزاعم من يلومون بشدة في الإفراط في الكلام. بعد أن رد ابن أبي الإصبع على هاتين المدرستين، أكد أنه ينتمي إلى المدرسة الوسطى،

فإن انتقاد الكلام الزائد هو خطأ، وانتقاد الإفراط تماما ليس دقيقًا، وأفضل الأمور هي الوسطى. [34]، ثم ذُكِرَ أن المبالغة المرضية هي أن تكون المبالغة نوعًا من الصفات الحسنة إذا زادت عن الحد المناسب، وعلى الرغم من ذلك، فإن الحد الأقصى والتجاوز هما أيضًا صفتان جميلتان إذا ارتبطا، وصفتان سيئتان إذا انفصلتا[35]، ثم تبيّن لاحقًا أن معظم النقاد يرون أن أفضل الكلمات هي تلك التي تجمع بين الوفرة والاقتصاد، السلاسة والقوة، الغرابة والفائدة، الطبيعية والمحكمة.[36]، وهذا هو مذهبه الذي يؤيده بقوة.

يظهر واضحًا من السياق السابق أن استخدام كلمة "الكذب" بوصف ابن أبي الإصبع يشير إلى المبالغة، بينما كلمة "الصدق" تشير إلى الحقيقة بمفهومها التاريخي والواقعي. وإلى جانب ذلك، فإن الصدق أحيانًا يعبر عن الحق، بينما الكذب يعبر عن الباطل، كما ذكر في تفريقه بين الغلو والإغراق .ويشير إلى كلٍّ من الغلو والإغراق إلى التجاوز عن الحد المعتاد، حيث يشبه الخروج عن الحق إلى الباطل ميل رمية معينة عن الهدف المعتاد. [37]، ويعني بالرمية، أن يرمي السّهم إلى أبعد ما يمكن أن يصل إليه.

أشار ابن أبي الإصبع إلى أن المبالغة لا يمكن انتقادها إلا إذا تخطت الحد الذي يجعلها مستحيلة، فالمبالغة مقبولة إذا كانت تحمل معنى قابلاً للتجربة في الواقع، ومرفوضة إذا كانت تحمل معنى لا يمكن تحقيقه..

ما يجعل المبالغة ممكنة ويجنبها الوقوع في الاستحالة، كما هو الحال مع الغلو والإغراق، هو ارتباطها بعناصر تخرجها من نطاق الحقيقة .فتساعد كلمات مثل "قد "على إبراز الاحتمال، و"لو "و"لولا "لإظهار الامتناع، و"كاد " لتقريب الفكرة، بالإضافة إلى أدوات التشبيه وآلات التشكيك وغيرها من القرائن اللغوية المشابهة. [38]، وهذا ما يجعلها محببة ومطلوبة عندما تكون مرتبطة بالعوامل الصحيحة .أما إذا لم تكن كذلك، فتصبح معيبة وغير مقبولة. ولذلك، يُعتبر أن مبالغات الكتاب الكريم غير مقبولة إلا إذا استندت إلى الحقائق.. قوله تعالى:﴿**سواء منكم من أسر القول ومن جهر به**﴾ [39]، والمبالغة في القرآن، تكون بالقياس إلى علم البشر لا إلى علم الله سبحانه وصل إلى مدى أبعد عندما استقر على أنه لا يُسمح بأي نوع من التطرف أو المبالغة في تفسير القرآن الكريم، وأن الكلام السليم والفصيح يجب أن يكون مدعمًا بالمنطق والممكنات بدلاً من الأمور المستحيلة. ، مثل (كاد) وما يجري مجراها[40].

ولذلك فهو لا يفرد في كتابه "البديع"، باباً للغلو وآخر للإغراق، ربما يعود السبب إلى عدم وجود شواهد في القرآن الكريم تدعم ضرورة الاقتران في هذين المجالين، ولذلك لم يتم تحقيق ذلك. بالرغم من أن بعض النقاد مثل أبي الهلال العسكري وابن رشيق القيرواني قد استشهدوا ببعض الآيات القرآنية كدليل على الغلو، لكنهم كانوا في تقدير آخر فيها كلمة (كاد)، فدخلت بذلك في باب المستحسن من الغلو، فمن ذلك مثلاً قوله تعالى: (وبلغت القلوب الحناجر) [41]، أي كادت [42].

من المهم أن نلفت النظر إلى أن ابن أبي الإصبع يضع الممكن والحقيقة في مواجهة مع غير الممكن والممتنع .هذان المصطلحان يعبران عن مفهوم عدم إمكانية وقوع الشيء أو تحققه في الحياة الواقعية. ، فعن قوله تعالى: يكاد سنا

برقه يذهب الأبصار) [43]، يقول: "فإن اقتران هذه الجملة بـ (يكاد)، صرفها إلى الحقيقة، فانقلبت من الامتناع إلى الإمكان [44]، أما كلمة (المحال أو الاستحالة) فإنها تبدو أعلى درجة من (الممتنع)، ويرد هذا الوصف على تضخيمات القرآن الكريم التي يفحصها ويحللها كونها في بعض الأحيان غير معقولة، وفي أحيان أخرى غير واردة، ولكنها أصبحت محتملة ومقيدة، كما هو الحال في الآية السابقة .كما يصف بعض أبيات الشعر بالاستحالة كما في قول قيس بن الخطيم. [45].

طعنت ابن عبد القيس طعنة ثائر لها نفذ لولا الشعاع أضاءها

ملكت بها كفي فأنفرت فتقها يرى قائم من دونها ما وراءها

يعتقد أن الأمر يصعب تصوره لولا وجود تلك العوامل، حيث يوضح أن الإفراط في شرح الأمور يقيدها بحدود "لولا"، مما يجعل من الصعب تحقيقها أو إدراكها من دون تلك القيود.[46]والكذب عند ابن أبي الإصبع درجات فالمبالغة أدناها، والإغراق أوسطها، والغلو أعلاها، يقول: الإغراق فوق المبالغة، ودون الغلو [47].

انتقد بعض النقاد بسبب عدم تمييزهم بين الغلو والإغراق، حيث اعتبروا التسميتين لنفس المضمون. [48]، عُرض الفرق بين المصطلحين بناءً على المعنى اللغوي لكل منهما .يرى الكاتب أن الفرق بين الإغراق والغلو واضح ومختلف تماماً كما تختلف أسماؤهما. الإغراق في الأساس يتعلق بالنزع، بينما الغلو ينشأ بعد الرمي .عندما يحدد الرامي هدفًا ويسعى جاهداً لإصابته، يضع بينه وبين الهدف مسافة مناسبة لتحقيق ذلك الهدف بدقة .أما إذا لم يستهدف الرامي هدفًا محددًا، بل أطلق السهم لأقصى مدى يمكن أن يصله دون أن يعيقه شيء من إطلاق كامل قوته، فإن ذلك الطلق يُعرف بالغلوة .إذًا، مصطلح الغلو مشتق من هذا السياق. [49].

الغلو يعني التجاوز في رمي السهم بأقصى مدى، بينما الإغراق يعني جذب الوتر بالسهم إلى أقصى حد قبل رميه. [50]، أعتقد أن هذا هو السبب وراء تصنيفهم للتضخم على أنه أكثر أهمية من الإغراق .ربما يكون الاختلاف في تعريف ابن أبي الإصبع لكلمات مثل التضخم والإغراق والتجاوز بالمقارنة مع نقاد سابقين، قد أسهم في تباين وجهات نظره معهم عندما قدم أمثلة معينة في هذا السياق.، فقد ذكر مثلاً قول ابن المعتز[51]:

صببنا عليها ظالمين سياطنا فطارت بها أيد سراع وأرجل

شاهداً على الإغراق [52] ، بينما ذكر ابن رشيق البيت نفسه شاهداً على المبالغة [53] ، وكذلك الأمر في بيت امرئ القيس الذي يقول فيه:

تنورتها من أذرعات وأهلها بيثرب أدنى دارها نظر عال [54]

عندما تأمل ابن أبي الإصبع في موضوع الغلو، توصل إلى رؤية متميزة؛ إذ لاحظ وجود دلائل تدعم الغلو لكنها ليست بالضرورة تدعم الإغراق، والعكس صحيح .وقد خصص جزءًا كبيرًا من جهده لتقديم أدلة عديدة على هذا

الاختلاف، متناولًا النقد بمزيد من الدقة والوضوح. وأشار إلى بعض الأخطاء التي وقع فيها النقاد في فهمهم وتقييمهم لهذه الأدلة .من أبرز الأمثلة التي طرحها بيت الشعر لمهلهل، والذي شغل حيزًا في نقاشات كتب النقد، حيث اعتُبر مثالًا واضحًا على كل من الغلو الشديد والإفراط في التعبير..وهو قوله:

فلولا الريح أسمع من بحجر* صليل البيض تقرع بالذكور**[55]

فقد ذكر أن النقاد رأوا أن هذا البيت أكذب بيت قالته العرب، وساق موازنتهم له ببيت امرئ القيس الذي يقول فيه:

تنورتها من أذرعات وأهلها*بيثرب أدنى دارها نظر عال**[56]

عندما شاهدوا هذا البيت، اعتبروه أقرب إلى الحق من البيت الآخر .ففي هذا البيت ما يجعله خاليًا من الانتقاد؛ إذ يعترف ببُعد مسافة النار التي لم يصلها إلا ناظرٌ أعلى، وحاسة البصر التي هي أقوى وأدق من حاسة السمع . فالسمع القوي يستمع إلى صوتٍ عظيمٍ بشرط أن يحمله الريح إلى مكان السامع في الليل الهادئ، وحاسة البصر ترى الأشياء الشفافة والمتلألئة بدقة تفوق حدود الضوء وظل الأرض وضوء النهار. ولهذا، اعتبروا بيت أمرئ القيس أفضل من بيت مهلهل، إلا أن هذا الرأي لم يشار إليه من قِبل ابن أبي الإصبع الذي اعتبر بيت مهلهل الأقرب إلى الحق، خصوصًا إذا تم احترام الشروط التي حددها النقاد، والتي تشترط ربط الكلام بالواقع الممكن وإخراجه من المستحيل.، مثل كاد"، أو "لولا"... أو ما شابهها، حيث نراه يقول –بعد التفكير المستفيض– بأن بيت المهلهل أقرب إلى الصدق وأكثر استحسانًا وفق المقاييس النقدية المتبعة، مقارنة ببيت امرؤ القيس. إذ اشترط النقاد أن الكلام الذي يتجاوز فيه المتحدث حد المبالغة إلى الإغراق والغلو، حتى يصبح مقبولًا ومستحسنًا، يجب أن يقترن بعناصر تُقربه من الإمكان .وقد استخدم مهلهل في بيته كلمة)"لولا"(، وهي إحدى الحروف التي اعتبرت أنها تُبعد الكلام عن العيوب تمامًا .في المقابل، يفتقر بيت امرؤ القيس إلى مثل هذه العناصر، رغم أنه تحدث صراحة في البيت الذي سبقه، لكنه لم يستطع تقديم شيء يغني عن تلك الحرفيات التي تساعد في تجنب المبالغة الغير مرغوبة. [57] أن النار إنما شبت في وجه النهار، عند رجوع المغيرة من المغار، حيث يقول بأن بزوغ النهار يحجب عنا رؤية النيران والكواكب وكل الأجرام السماوية المشرقة .هذا الأمر يجعل امرؤ القيس يفتح بابًا للاستحالة، إذ تخلو الفكرة من أي عنصر يقرّبها من الواقع. [58].

في هذا النص، يتناول ابن أبي الإصبع النقاد الذين قدّروا بيت الشاعر امرئ القيس باعتباره أكثر دقة من بيت مهلهل، وذلك بناءً على القواعد التي وضعوها في كتبهم. يؤكد النقاد على أهمية أن يلتزم الشاعر أو الكاتب بصدق الكلام وحقيقته، حتى عند المبالغة أو الغلو، بأن يربطه بعناصر تجعله أقرب إلى الصدق باستخدام مفردات ومعان تضيف ذلك الصبغة الواقعية .ويشير ابن أبي الإصبع إلى أن بيت مهلهل يتضمن هذه السمات بسبب استعماله لكلمة "ولا"، التي تبرز مشهد امتناع الشرط المفروض عند سماع صوت السيوف، بفضل شرط وجود الريح. وبالتالي، يخلص ابن أبي الإصبع إلى اعتبار بيت مهلهل أكثر اقترابًا من الحقيقة مقارنة ببيت امرئ القيس

وبذلك أغلقت النقاش حول موقف ابن أبي الإصبع بخصوص مسألة الصدق والكذب بطريقة متوازنة ومعتدلة، مبتعدًا عن التطرف ومتوافقًا مع معظم النقاد الذين شددوا على ضرورة ضبط المبالغة وتجنب التطرّف لتفادي الوقوع في المستحيلات، وجعل الأمور أكثر قابلية للفهم والتجميل في الكلام. ومع اختتام هذا الفصل، أتممت مناقشة أربع من أبرز قضايا النقد العربي لدى ابن أبي الإصبع. وهذا يمهّد الطريق للانتقال في الفصل التالي إلى دراسة نقده للعلماء دون اعتبار للعصور أو التخصصات.

5. خاتمة:

نخلص في آخر هذا المقال إلى جملة من النتائج والتوصيات على النحو الآتي:

- إن كتاب **"تحرير التحبير"** لصاحبه ابن أبي الإصبع المصري يحتوي قضايا نقدية وأخرى نحوية وبلاغية، إلا أن غالبها ما يحوم في فلك النقد البلاغي.
- القضايا النقدية في كتاب "تحرير التحبير" يمكن تلخصيها في ثلاث قضايا أساسية في الدرس النقدي القديم؛ وهي قضية اللفظ والمعنى وقضية الموازنة، بالإضافة إلى قضية الصدق والكذب.
- ناقش ابن أبي الإصبع المصري قضية اللفظ والمعنى من عدة جوانب مقدما مسحة تاريخية لأبرز آراء النقاد وتنوع وجهاتهم وآرائهم النقدية إلا أنه كان ميالا لفكرة المزاوجة والموازنة في الاعتناء باللفظ والمعنى وعدم المساومة على جانب دون الآخر، على أساس أنهما وجهان لعملة واحدة.
- قضية الموازنة عند ابن أبي الإصبع المصري أخذت أبعادا عميقا، فراح الناقد يوازن بين الشعراء، وبين الشعر والنثر أيهما مستحسن، والموازنة بين أصحاب الصنعة والطبع.
- أما بالنسبة لقضية الصدق والكذب فلم يكتفي الناقد "ابن أبي الإصبع" بتبني الصدق الفني على ضده، وإنما أخذ يفصل في هذه القضية وقد أخرج المبالغة من باب الكذب على أن لا تخرج عن الحد المألوف وأن لا تكون مغرقة في الغلو.
- في ختام هذه الورقة البحثية نقول –بحسب رأينا–أن الناقد ابن أبي الإصبع المصري قد كان يعتمد على خطى ثابتة في نقده وذلك في تقديم تقرير نقدي في كل قضية وما جاء فيها حتى يصل إلى تقديم نقده بكل وضوح، ليحاول جاهدا أن تكون له نظرة عميقة في كل قضية حتى يقدم أفضل ما عنده في كل قضية، إلا أنّه من جانب آخر نراه لم يأت بما هو جديد في تلك القضايا وإنما نراه يقف عند رأي أحدهم ويتبناه وربما يقوم ببعض الإضافات هنا وهناك. وإنما الجانب المستحسن في نقده أنه يناقش تلك القضايا بطريقة ممنهجة وواضحة بعيدة عن العبثية والعشوائية في الطرح.

5- الهوامش

[1] –المصدر نفسه، 408.

[22] – تحرير التحبير: 401-407.

[3] – المصدر السابق، 408.

[4] –نفسه، ص405.

[5] –المصدر السابق، ص404-4015.

[6] –ينظر: ابن أبي الأصبع المصري، تحرير التحبير، ص362.

[7] –المصدر السابق، ص392.

[8] –المصدر نفسه، ص538.

[9] –المصدر نفسه، ص195.

[10] –ينظر: الموازنة: 54.

[11] بديع القرآن: 238

[12] تحرير التحبير : 289، وفي إشارته إلى الطبقة العليا من البلاغة، والطبقة السفلى منها، تأثر بالرماني في (نكته)، لأنه هو صاحب هذا التقسيم. انظر النكت في إعجاز القرآن: 75

[13] تحرير التحبير : (289-288)

[14] هود: 44

[15] النحل: 90

[16] الاستدراك في الرد على رسالة ابن الدهان 59

[17] البيت في ديوانه 38

[18] البيت في ديوانه 78

[19] الاستدراك في الرد على رسالة ابن الدهان 59.

[20] تحرير التحبير : 386 وانظر التعريف نفسه في إعجاز القرآن: 134، والمثل السائر : 278/، وشرح التلخيص في علوم البلاغة ،192، ونضرة الإغريق في نصرة الفريض: 54.

[21] تحرير التحبير : 386.

[22] بديع القرآن: 95

[23] الأنبياء: 23.

[24] بديع القرآن: 95-96

[25] المصدر السابق: 16

[26] البيت في ديوانه 35

[27] انظر تحرير التحبير: 148

[28] تحرير التحبير : 148

[29] البيتان في ديوانه 43

[30] تحرير التحبير : 150 ، والبيت في ديوانه 76

[31] المصدر السابق: 158

[32] نقد الشعر : 62.

[33] انظر تحرير التحبير : 15 وما بعدها، وبديع القرآن: 54 وما بعدها.

[34] المصدر السابق 150

[35] المصدر السابق: 57

[36] تحرير التحبير :158

[37] المصدر السابق: 323

[38] المصدر السابق: 323

[39] الرعد: 10

[40] تحرير التحبير : 1

[41] الأحزاب: ١٠.

[42] انظر العمدة: ص662.

[43] سورة النور، الآية 43.

[44] تحرير التحبير، ص : 152 .

[45] ابن أبي الإصبع، الديوان، ص 8-7.

[46] انظر تحرير التحبير : ص154.

[47] المصدر السابق: ص321.

[48] العمدة: ص661.

[49] تحرير التحبير : ص323.

[50] ابن منظور، لسان العرب، مادة (ن،ز،ع) ج4، ص423.

[51] ابن أبي الإصبع، الديوان، ص322.

[52] انظر تحرير التحبير : ص321.

[53] انظر العمدة: ص651-652.

[54] انظر تحرير التحبير : ص322.

[55] انظر في الوساطة ص423.

[56] انظر في العمدة ض653..

[58] تحرير التحبير : ص324-325.

7. قائمة المراجع:

1. ابن أبي الأصبع المصري، تحرير التحبير، ص362.
2. الموازنة: 54،.
3. ابن أبي الإصبع، الديوان، ص 8-7.
4. ابن أبي الإصبع، الديوان، ص322.
5. ابن منظور، لسان العرب، مادة (ن،ز،ع) ج4، ص423.
6. الاستدراك في الرد على رسالة ابن الدهان 59.
7. العمدة: ص661.
8. العمدة: ص662.
9. تحرير التحبير : ص154.

10.بديع القرآن: 238

11.الوساطة ص423.

12. نقد الشعر : 62.